

كتب وشخصيات

زهرة العمر... لتوفيق الحكيم

للأستاذ سيد قطب

مدرسة توفيق الحكيم الفنية

رددت قبل أن أكتب «مدرسة توفيق الحكيم» فالواقع أن كلمة «مدرسة» تعني في نفسى شيئاً كثيراً؛ وإبست هي مجرد الأسلوب الفني وطريقة التعبير؛ إنما هي هذا وشئ آخر، هي طريقة الإحساس والتفكير؛ بل هي طريقة حياة حين تؤخذ بمعناها الواسع الأصيل.

وليس من الضروري أن يكون هناك أتباع وتلاميذ، كي يتحقق معنى «المدرسة»، فتلك مسألة تأتي مع الزمن؛ إنما المهم أن توجد العالم الواضحة المستقلة التي يلتقي عليها التلاميذ والأتباع حين يوجدون في زمن قريب أو بعيد.

هذه الطلم هي سمات إنسانية وفكرية ونفسية تجتمع أصولها لتلاميذ المدرسة الواحدة ثم تفرق ألوانها وأتباعها حسب الأمزجة الخاصة والملكات الفردية. وتنبعها طريقة التعبير، أى الأسلوب الفني الجامع لتلك السمات.

فهل نستطيع بعد هذا البيان أن نقول: إن لتوفيق الحكيم مدرسة؟

نعم نستطيع! ولكننا نحتاج بعدها إلى التحفظات المحددة لحقيقة ما نعبئ به. فتوفيق صاحب أسلوب فني واضح السمات — هذا ما لا جدال فيه — وهو كذلك صاحب طريقة في الإحساس والتفكير، ولكن هذه الطريقة ترجع إلى مزاجه الشخصي وتكوينه النفسي، أكثر مما ترجع الطبيعة العامة

وهذا كلام يحتاج إلى التوضيح!

يجنح توفيق الحكيم إلى أن يعيش في داخل نفسه أكثر مما يعيش في خارجها، فلا تهمه الحياة المتعاطفة في الخارج كآهمه الحياة التي بصورها خياله كما يريد، وهنا تولد وتعيش تلك

المخلوقات الفنية التي يرسمها على هواه من أمثال شهرزاد وشهریار وبيجاليون وعنان ومختار... الخ.

فما منشأ هذا؟ منشؤه هو إشفاق توفيق من الحياة، وضمف الحيوية في كيانه الجسدى. وقد يكون هذا الضمف علة ذلك الإشفاق، ولكن مما لا شك فيه أن هناك أسباباً أخرى في نشأته الأولى، يمكن أن يقف عليها من يقرأ كتابه «عودة الروح»، وإلا فالضمف الجسدى كثيراً ما يكون سبب دفعة حيوية في الفكر، كما في «نيتشة» مثلاً.

وليس بنا في هذا المقال القصير أن نقوم بدراسة جسمية ونفسية؛ ولكن حسبنا أن نشير إلى هذه الأسباب لتوضيح ما قلناه من أن طريقة توفيق في الإحساس والتفكير مردها إلى مزاجه الشخصي وتكوينه النفسى.

فالذين يشبهون هذا الفنان في مزاجه وتكوينه هم الذين سيكونون أتباعه وتلاميذه في هذه الحياة الفكرية الباطنة التي ترسم الشخص رسماً فنياً خاصاً. ولا بد لكل فنان من قسط من هذه الحياة الباطنة بنقص أو يزيد. ولكن يبقى أن يوهب هؤلاء التلاميذ — كما وهب — أسلوباً قوياً فنياً في التعبير، وأداة فنية ناضجة في الحوار، ليكونوا تلاميذ حقيقيين. وهو ما لم يوجد بعد، على الرغم من المقلدين الكثيرين في مصر وفي بلاد الشرق العربى الذين حسبوا الحوار هو كل موهبة توفيق الحكيم، وحسبوا استيعاء الأساطير هو كل ما يعزه بين الفنانين!

نعم إن الطاقة محدودة، وقد يأتى — في هذا المجال — من هو أكبر طاقة وأبعد غوراً من توفيق الحكيم؛ ولكن سيبقى له فضل سبق، وابتداع الطريقة وإكمال الأداة

في هذه الحدود نستطيع أن نقول: إن لتوفيق الحكيم مدرسة؛ ولكننا نمود فترد إليه حقه كاملاً حين نثبت له النضوج الكامل في أسلوبه الفني عامة والقوة البارعة في حوارهِ على وجه الخصوص. هنا موهبة متفردة لا شك فيها، مهما قيل في الطاقة التي يعمل بها وفي الموضوعات والفكر التي يتناولها

وبعد فإلى العنوان الذى يمكن أن نضمه لتلك المدرسة أو لهذه الطريقة ؟

هو عنوان « التنسيق الفنى »

يقول توفيق الحكيم فى إحدى رسائله إلى « أندريه » فى كتابه « زهرة العمر »

« إن فن الإغريق هو تجميل الطبيعة إلى حد إشعارها بنقصها ... لكأنهم يريدون أن يقولوا للطبيعة : أنظرى ... كان ينبغي أن تصنى هكذا ! ... »

ثم يقول : « إن فن مصر القديمة هو تجميد صاخر للطبيعة ؛ فكأنهم يقولون للطبيعة انظرى.. لاشأن لنا بك ولا بمخلوقاتك، إننا نستطيع من غيلتنا ومن تفكيرنا أن نخرج مخلوقات أخرى غريبة عجيبية لم نخطر لك على بال ... »

ويحيل إلى أن فن توفيق الحكيم هو تنسيق للطبيعة وتهذيب ، بالنقص هنا وبالإضافة هناك ، حتى يستوى له خلق فيه من الطبيعة مشابه ولكنه منسق على نحو خاص يرضى مزاجه الفنى الذى يجد مجاله فى مخلوقات الفن المنسقة على طراز مطلوب ... وكأنه يقول للطبيعة : إنك فى منتصف الطريق ، ولا تزالين تخطئين بين الجمال والقبح وبين الرذيلة والفضيلة وبين الفكر والفرية ... إلى آخر هذه الأمشاج ؛ فدونك مخلوقات أخرى مصفاة على نحو خاص ، ذات اتجاه موحد لا اضطراب فيه ولا اختلاط ... ! »

وهذه المخلوقات التوفيقية يتفق لبعضها الجمال الفنى فيغنيها عن جمال الحيوية ويضمها أنداداً مقابلة لمخلوقات الطبيعة ؛ ويخطئ بعضها التوفيق فتبدو باردة هامدة ، ولكنها لا تهبط إلى الموت أو الابتذال

وهنا نجدنا ملزمين بأن نرد لتوفيق حقه مرة أخرى فننص على أن هذا الاتجاه لا يستغرق جميع أعماله ؛ فهناك أعمال تنبض بالحياة الطبيعية والحركة الحيوية — على نحو من الأنحاء — كيوميات نائب فى الأرياف ، ورسامة فى القلب ، وعودة الروح، والزمار، والموالم ، وراقصة المبد، وعصفور من الشرق ؛ وهى تؤلف جانباً كبيراً من أعماله الفنية للطبيعة يطابعه الخاص

وفى بعض هذه الأعمال تنهياً للحبكة الفنية والحركة الحيوية ، إلى جانب العناية بالفكرة والسخرية العميقة . وبخاصة « يوميات نائب فى الأرياف والزمار » وفيهما معالم واضحة للفن القوي المنشود ؛ ثم نعود إلى اصطلاح « التنسيق الفنى » الذى جعلناه عنواناً لمدرسة توفيق الحكيم فنقول : إننا نعنى به معنى آخر بجانب « تنسيق الشخصيات » نعنى به معنى فى طريقة العرض ، فى الأسلوب الذى تعرض به الشخصيات والحوادث والأفكار ، فهذه الطريقة موحدة سواء كان المروض قصة أو تمثيلية أو فكرة فى مقالة . ولستنا نعنى به ما يعبرون عنه بالحبكة ، فهو أوسع من ذلك مدى . إنه « التصميم الهندسى » للعمل الفنى كله ، بحيث يبدو متساقاً منسقاً مطرداً ، وبحيث تنهياً هذا العمل الفنى كله فى ذهن الفنان قبل أن يبدأ القصة الأولى ، كما يضع المهندس تصميم مشروع كامل من المشروعات ، ثم ينفذه بعد ذلك حسب التصميم . وما قرأت عملاً من أعمال توفيق إلا كان هذا « التصميم الهندسى » واضحاً فيه ككل الموضوع ولعل أوضح ما يوضح ذلك هو « زهرة العمر » . فهذا كتاب مكون من مجموعة رسائل إلى صديقه أندريه ؛ وليس مطلوباً فى « رسائل » متفرقة أن تؤلف موضوعاً متناسقاً . فإذا هى كانت كذلك ، كان هذا دليلاً على أصالة ملكة « التنسيق الفنى » ، وظهورها حيث لا يرتقب منها الظهور

وتقرأ هذه الرسائل فى تتابع فتلاحظ عملية التنسيق الداخلى ، ونحس شيئاً فشيئاً أنك أمام قصة : قصة مخلوق حقيقى أروائى ، يسير فى الحياة وكأن يبدأ خفية تسوقه إلى مصير مرسوم ، وكلما أراد لنفسه أو أراد له أهله أو أرادت له ظروفه أن يحمى عن هذا المصير ردت هذه اليد الخفية إلى طريقه المرسوم !

شاب يريد له أهله الوظيفة بمد اللسان فلا يوفقون ، ويمشون به إلى أوروبا للحصول على الدكتوراه ، فيجاهد فى سبيلها بما يستطيع — بمد أن يفرق فى الدراسات الفنية إلى أذنيه — ولكن نخوته ذاكرته فى الامتحان ، وتقيض له الحياة متع المرأة الحية جيماً — مع ساشا الجلييلة وسواها — فيمل هذا المتاع ويتلقى بالمرأة الأخرى التى طردته من جنبها بعد أسبوعين

فقد تخالفه في الرأي والإحساس ، ولكنك تجد المتعة في الاثر
الناشئ عنهما في الفنون

نم نخلص إلى الحديث الخاص عن « زهرة العمر » فاقيمة
هذا العمل الأخير ؟ إن هذا الكتاب يستمد قيمته التي ترفعه
إلى مستوى أحسن أعمال توفيق الحكيم من ثلاثة أصول
من اللجة الإنسانية الأليفة التي صيغت بها معظم الرسائل
من الألم والشك والجهاد والقلق والاضطراب والتذبذب المستمر
بين الحالات النفسية المختلفة ... هذه اللجة التي تفقد أواصر
الصدقة بين المؤلف وبين القارئ ، وتشرها مما أن بينهما صلة
إنسانية ، وأن الإنسان ضعيف أمام القوى الخفية التي تسيطر
على أقدار الناس وخطواتهم في هذا الكون الكبير !

ومن « التنسيق الفني » الذي يجعل من هذه الرسائل
الواقعية وحدة مطردة في سياق روائي ، والواقع حين يكتب
التنسيق الروائي تجتمع له بساطة الصدق وجمال الفن ، وهذا
واضح في « زهرة العمر » لمن يقرؤه متنبهاً إلى التنسيق الفني
الخلق الملاحظ !

ومن البيان الخي لمرحلة التكوين الفني الصحيح ، حتى
ليصح أن يطلق على الكتاب « سفر التكوين » . فالطريق
إلى النضوج الفني طويل ، ووعر ، ومليء بالأشواك ، والفن
عسير ، والذي يثبت إلى النهاية هو الذي يحق له أن يتطلع
إلى النجاح بعد الجهد الجهد ... هذه خلاصة ما يشير إليه
المؤلف في « زهرة العمر » وبدلاً من أن يلقيه نصائح وعظات ،
عرضه مصوراً في حياة إنسانية ، فكان أقرب إلى النفوس

وإذا اجتمعت هذه المزايا الثلاث لعمل أدبي كانت حسبه
ليعد عملاً فنياً ذا قيمة . ولكنها لا تجتمع وحدها في هذا الكتاب ،
فهناك الومضات الفكرية والإشعاعات الشعرية التي لا بد منها
لكل عمل حتى تسلكه في عالم الفنون

وعيب هذه المقالات المحدودة المجال أنها لا تتسع للنموذج
والمثال ، فليد القارئ إلى أعمال توفيق الحكيم ويده هذا
الفتاح الذي قصرنا عليه المقال !

سيد قطب

(حلوان)

وتركته يتعذب ويتلظى (لأن تعلقه بها جزء في الطريق المرسوم
طريق الفن الملمون) ويعود فيوظف وينجح في وظيفته ويأخذ
أهله أو يأخذ المجتمع في تكبيله بقيد النجاح العملي ثم يقيد
الزواج ... وهنا يستجمع المؤلف كل قوته الروائية في المشهد
الأخير وهو يستعد للوثة النهائية وللخلاص من جميع القيود ؛
فيجمع هذه القيود في مشهد واحد في الرسالة الأخيرة ، قيد
الوظيفة على أعنه ، وقيد الزوجية في إياه ، وقيد المجتمع في احتقار
الفنون ؛ وفي اللحظة نفسها يبدو كأنه نضج للفن واهتدى إلى
سره وأمسك بالأسلوب الذي طال بحثه عنه ... ثم يسدل
الستار بين الهتاف والتصفيق ! وبطل القصة أشبه بأبطال
الروايات ، بل هو أشبه ما يكون « بيجاليون » !

هذا تنسيق يدل على أصالة في فن التنسيق ، وهو ظاهرة
ملحوظة في « زهرة العمر » كل الظهور . وهي كذلك ملحوظة
في « يوميات نائب في الأرياف » يمثل هذا الوضع . وقد اخترت
هذين الممثلين لأنهما ليسا قصة وليسا تمثيلية . فإذا توافر لهما
هذا التناسق الكامل ، فما أولى القصص والتمثيلات بأن يتوافر لهما
من أسير سبيل . وفي « زهرة العمر » رسائل تحوى كل منهما
قصة صغيرة كاملة مثل « قصته مع ساشا » يبدو فيها التناسق
في أعلى مستواه

ومعنى نالك نمته « بالتنسيق الذاتي » هو إحاطة الحوادث
والملاحظات إلى مواد فنية خامة في « الاستوديو » الدائب
العمل ! فالناس يعيشون الحياة وتوفيق الحكيم يشفق أن يعيشها
وينزوي عنها مرثداً إلى نفسه ليحولها إلى عمل فني هناك ،
وكما لحظت عينه أو نفسه مشهداً من مشاهد ما لم يكن هم
أن يستمتع بهذا المشهد وأن يزاوله وبضطرب فيه ، ولكن
كان هم التقاطه لأنه مادة صالحة « للاستوديو » اللامع والمراد
ذلك إلى مزاجه وتكوينه كما سلف . وكثيراً ما يكون انحراف
المزاج مزية للفنان الذي يعرف كيف يحيل كل ما بصادفه إلى
مادة فنية . وتوفيق من هذا القبيل . وقصة « ساشا » في
« زهرة العمر » من الأمثلة على ما نقول . وغلطة هذا المزاج
هي اعتبار الفن مقابلاً للحياة لا متفاعلاً مع الحياة ؛ ولكن
ليس من الضروري أن توافق توفيق في مزاجه لتستسيغ منه